

## حنا مينه .. أيب التجربة والمعاناة

« من عاش في قرن المحنة قادر على فهم المعاناة » (١) . بهسده الكلمات لغص حنا مينه تجربته في الحياة والادب . ذلك ان حنا مينه عاش حياته ( ٨ سنة ) باكثر مما كتب ( أربع روايات ، كتاب نقدي ، رواية مترجمة عن مكسيم غوركي ، وعدة قصص قصيرة ومقالات ) ، لذا فكل منطلقاته نابعة من معاناة حقيقية لتجارب الحياة والناس . ومن هنا لم ينفصل الفكر والسلوك في تجربة حنا مينه الادبية والحياتية ، فامتزجت تجارب حياته بنتائج الادبي بمنطلقاته الفكرية والسياسية ، وأثرت معاناته الحياتية اعماله الادبية والسياسية ، وقد زودت تجارب الحياة أدب حنا مينه بغزارة الانطباع الحسي التي أرجعها جورج لوكاش الى سيرة حياة الكاتب قائلا : « ان الموهبة الادبية تعني الولع بشراء الحياة وتنوعها . والكيفية التي يفرض بها كاتب نوعا من النظام على غزارة الانطباع الحسي عنده مسألة تتعلق بسيرة حياته أساسا » (٢) . كما أفتت رؤاه الفكرية والسياسية وعمقت تجاربه ونصاله في الحياة ولهذا الامتزاج الكامل بين حياة وأدب حنا مينه لا يمكن فهم أدبه ومنطلقاته الحياتية والفكرية دون متابعة الحياة الفريدة لذلك الاديب العربي السوري التقدمي . فكل انتاجه الادبي ومواقفه السياسية نابعة من معارك الحياة النابضة بالحيوية والقسوة وليس من النظريات والفكر المجرد ، وكل رؤاه الفكرية والادبية مصدرها معاناة عميقة للواقع العربي السوري . واذ تركز هذه الدراسة على متابعة الصلة بين تجارب حنا ومعاناته وروايته « المصابيح الزرق » كمفتاح لدراسة أدبه ، فلان حنا مينه نموذج فريد للاديب العربي الذي يكتب عن تعرس ومعاناة للواقع العربي وليس كمتفرج ، ولان « المصابيح الزرق » هي الترجمة الواقعية التي تجسد زخم الواقع الذي عاشه حنا مينه ومآساه .

وعن أهمية التجربة والمعاناة كتب جورج لوكاش : « حين نستمع في الحياة الى انسان يتكلم فأول ما يؤثر فينا المحتوى البين لما يتكلمه . ان هذا المحتوى يتصل بالنسبة للمستمع في الحياة صلة وثيقة بتجارب ومعاناة هذا الانسان وينسجم مع هذه التجارب والمعاناة

( ١ ) حنا مينه ، على الاكياس ، مجلة المعرفة السورية ، ابريل ( نيسان ) ١٩٧٠ .

( ٢ ) جورج لوكاش ، معنى الواقعية المعاصرة ، الترجمة العربية للدكتور امين العيوبي ، نشر دار المعارف بمصر ، الطبعة الاولى ١٩٧١ ، ص ٦٦ .

او يتعارض معها » (٣) . وكتب حنا مينه عن رايه في موضوع التجربة والمعاناة و«لاقتها بالفن » وطبعاً ليس غرضي أن أقيم الأدلة على أن المعاناة في الفن هي أساسه . تلك مسألة قيل فيها الكثير . حسبي ان أحدث عن اثر هذه المعاناة ، لا في الذات وحدها ، بل فيها وفيما هو خارجها ، وعن قيمتها في جعل الفن حقيقياً صادقاً .. فلكي نصف الشيء بصدق يجب أن نعرفه بصدق . ان المعرفة النظرية والتجريبية هي المعين الثري للادب والفن ، والشرط في المعرفة ان تكون تجريبية أيضا ، لان المعرفة النظرية ، المستقاة من الكتب ، قد تحمل اليأس تجارب الآخرين ، ولكنها تظل تغتفر الى تجربتنا نحن ، الى معاناتنا ، فاذا لم تكملها بالمعرفة المستقاة من العيش بين الناس ، تظل ناقصة ، سطحية باهتة » (٤) . وفي كتابه النقدي « ناظم حكمت وقضايا أدبية وفكرية » كتب حنا مينه عن « الاديب والمعاناة » موضحا مفهومه لعملية الخلق الادبي ، التي تتكون في رايه من مرحلتين : الاولى مرحلة التجربة والمعاناة ، وهنا يجري اختزان التجارب والانطباعات في ذاكرة الاديب ، والمرحلة الثانية هي اجترار هذه الذكريات و « تخيل ما كان واقعا ومعاشا ، سواء في طفولة الكاتب أو شبابه واستواء رجولته .. » (٥) وكثيرا ما يؤكد حنا مينه على أهمية المعاناة « لتكون أدباء من لحم ودم لا من حبر وورق » (٦) . وهكذا فالمدخل الصحيح لدراسة ادب حنا مينه هو حياة حنا مينه حيث تقفز شخصياته من القرية والمدينة والشارع والبحر والسجن والغربة ، الى صفحات الورق فتدفع فيها بنبض الحياة ودمها المتدفق .

كتب تشيكوف : « أرى انه سيأتي وقت تنسى فيه مؤلفات غوركي . ولكن من المشكوك فيه ، ولو بعد ألف سنة ، أن ينسى غوركي الانسان » . هذه الكلمات لتشيكوف تدلنا على أهمية الحياة العريضة والتجارب العميقة للمتعة لغوركي ، الذي تكاد ان تتطابق ظروف حياته

( ٣ ) جورج لوكاش ، دراسات من الواقعية ، ترجمة دكتور نسايف بلوز ، نشر وزارة الثقافة السورية ، الطبعة الاولى ، دمشق ١٩٧٠ ، ص ٥٥ .

( ٤ ) حنا مينه ، ناظم حكمت وقضايا أدبية وفكرية ، نشر وزارة الثقافة السورية ، الطبعة الاولى ، دمشق ١٩٧١ ، ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .

( ٥ ) المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

( ٦ ) المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

بابن بلده الذي رياه على يديه - كما يقول - وصار الآن شهيرا تنشر اسمه صحف العاصمة . ويتنقد أحيانا بعض الاوصاف التي يسبقها عليه حنا مدافعا عن نفسه ، ولكن الرواية كانت تجري بالرغم عنه ، وعن الكاتب نفسه ، لان النبتنج انفجر وتدفق ولا بد ان يجسد له مجرى « (١٢) » .

- ٢ -

حنا مينه ابن لاسرة فقيرة بانسة ، فالاب بائع جوال للحلوى ( المشبك ) في قرى لواء الاسكندرون ، والجد بحار فقير ولكنه شجاع يخوض صراع الانسان اليومي مع امواج البحر وقوى الطبيعة الجبارة . الابن الاوحد بين شقيقات ثلاث . في سنة ١٩٢٤ ولد حنا في مدينة اللاذقية ، الميناء السوري المطل على شرق البحر الابيض المتوسط ، ونظرا لمرض الاب مرضا شديدا رحلت الاسرة الى قرى لواء اسكندرون منتقلة من « السويدية » الى « الاكبر » حيث عاش حنا طفولته فاتحا عينيه على الحياة في الاكواخ والطين والفقر والجوع . وبعد ثلاث سنوات من الحياة البائسة في الريف رحلت الاسرة الى المدينة حيث شواطئ بحر اسكندرون ( شمال شرقي البحر المتوسط ) . وهناك تلقى حنا تعليمه الابتدائي ونال شهادته للدراسة الوحيدة « شهادة السيرتيفيكا » الفرنسية ( وهي تعادل الشهادة الابتدائية ) في وطن عربي يحتله الفرنسيون . اكثر الاشياء التي هزت حنا في صباه وأثرت في حياته وانطبعت في رواياته واعماله الادبية ، حنان الام وجهها للابن الوحيد المفضل لدى الاسرة ، والاب البائس الجوال بين القرى والجبال حاملا حلواه على راسه « والسبية المتصالية » على كتفه غاديا رائحا ظلاله الخبية لكساد بضاعته ، والاخت التي عملت خادما في البيوت ثم فرت للتزوج برجل تحبه فقاطعتها الاسرة . ويروي حنا مينه في جانب من ذكرياته كيف عرف العذاب ومرارة فشل الاب في ترويح بضاعته الكاسدة « كان من عادة الوالد ان يسعل ويتنحج اذا عاد . يعرف اننا ، في الليالي التي يتأخر فيها ، آذان تصفي بكل طاقاتها ولهفتها الى ما يتبرء بعودته سالما . وسملته ربما ، بشير وتظمن لقلوبنا الواجفة ، واذ نتأكد منها نترأض الى الباب ، وكثيرا ما كنا نفرح بعودته وناسي لمرآه خائبا ، حاملا طبقه النحاسي وحلواه الكاسدة . وفي هذه الحال كنت اكابدها صموتا . كان عذابه ينثال في صدري كدوب رصاص ، كبكاء والدتي على أختي الضائعة والاخرى الميتة ، كدخان فانوسنا الفازي حين تفرقع بلورته وليس لدينا سواها ، كمنظرات الاخت الصغيرة الى الام في الليالي التي نام فيها بغير طعام » (١٤) . وكفوركي كان اصداقاؤه الصغار من الفقراء والمشردين الحفاة الجوعى ، واللصوص الصغار الذين يسرقون من ميناء اسكندرون ليحصلوا على بعض الطعام والحلوى ، ايضا كان غوركي يسرق مع الصبية الالواح الخشبية من على ضفاف الفولفا . كان ميناء اسكندرون هو الميناء السوري الرئيسي المطل على البحر الابيض المتوسط آنئذ ، ولما كان الشاطئ غير مهيا لاستقبال البخرة الكبيرة فقد امتدت جسور خشبية ترتبط بمخازن الشاطئ بخطوط حديدية ، وهناك عمل حنا مينه في سن الثانية عشرة مع اصداقائه الصغار في دفع العربات الحديدية المحملة بالبضائع من امام البواخر الى المستودعات ، فانتقل من عالم المشردين والحفاة والبؤساء الى عالم البحر ورجاله ، واكبر النماذج البشرية التي خالطها حنا في صباه على البحر واختزنها ليكتبها ، فيما بعد ، هي شخصية « البازرلي » رئيس العمال القوي الجبار طيب القلب ، وسنجد عند قراءة رواياته

الصعبة ونصاله ، واكاد بأن أقول بتطابق أدبه مع أدب حنا مينه الذي وصفه القاص العربي السوري سعيد حورانية بالمعلم والاسطورة « حنا مينه كان معلما ، كانت حياته الاسطورة لهما . لقد قرأ كثيرا ولكنه عاش اكثر ، وكانت الحياة على حد تعبير احد الادباء « تنضح من جلده » ، هذا الرجل الذي عاش المأساة اكثر مما عاشها اي اديب سوري ، كان اكثرنا مرحا وانتصارا واما « (٧) » . ولذا تشكل تجارب الحياة المادة الرئيسية في أدب حنا مينه كما هي في ادب مكسيم غوركي ، فتطبق عليه كلمات لوكاش عن غوركي : « فهو لا يمت بصلة الى افغان التأثيرات العمة بذكاء بارع ، انه عمل في مادة الحياة الفنية ذاتها لينتزع منها بجهد وداب اشكال الظهور النموذجية وليبلور من فيها الطالع المضمون الفكري الراقى ، والاجتماعي الاشد تميزا ، والجمالي الانسب » (٨) .

ذلك الامتزاج الكامل بين حياة حنا مينه واتناجه الادبي اكسده كل الذين طالوا ادب حنا مينه وعرفوه انسانا ومناضلا واديبا . كتب محمد الجزائري : « حين كان ، في بغداد ، يتحدث لي عن ذكريات حياة المنفى ، كنت ابتهم ، وانا اصغي باهتمام ، لتناقضه وطيبته ووجهه لذكرياته .. اذ كنت اعتقد ، ولا زال اعتقادي قائما ، بان حنا مينه سيحول تجربته الحياتية هذه الى عمل روائي ، او انه في العمد الاثنى - يستفيد منها كجزء من لوحات عمل روائي جديد » (٩) . وكتب فاروق عبد القادر : « ولعل الاستاذ فياض بطل روايته « الثلج يأتي من النافذة » الكاتب القادم من دمشق ان يكون في ملامحه النفسية وهوموه الفكرية - ما كان حنا قبل عشرين عاما » (١٠) . وكتب فالي شكري : « ان العمل الادبي في حياة حنا مينه جزء لا ينفصل عن هذه الحياة ، فهي تمده بالخامة البكر وهو يمدحها بالمائة والفكر ، والنتيجة هي هذه الوحدة العميقة والاصيلة بين الكاتب وادبه » (١١) . وكتب فاضل السباعي : « وأحسب ، بعد هذا ، لتراحم الحوادث في هذه الرواية ، ان كثيرا منها هو مما وقع للمؤلف في فترات من حياته ، او وقع لاصداقائه الاقربين . فهي ، اذن ، من ذكرياته العزيزة التي يصعب التفريط باجزاء منها » (١٢) . ولعل اكثر هذه الكتابات دلالة على الامتزاج بين حياة حنا وادبه ما كتبه شوقي بغدادي في مقدمته لرواية حنا « المصابيح الزرق » : « لقد حدث مرة ان سافر حنا الى اللاذقية في احدى اجازاته لقضاء بضعة ايام بين اهله هناك ، وعندما عاد كان مكفهرًا كئيبا . ولما سألناه عرفنا ان احد اباطال قصته « المصابيح الزرق » ( وكان حنا لا يزال يكتب مخطوطاتها ) توفي الى رحمة الله . وهو مختار كيف يصنع الآن : هل يترك له خاتمته التي اختارها في الرواية ام يقصف عمره ، ويتخلص منه . بلى .. ان اباطال رواية حنا احياء يرزقون . وكلهم من سكان اللاذقية في فترة الحرب العالمية الثانية . وكثيرون هم الذين يعرفون « جريس » المختار . حتى ان المختار نفسه كان يحدث ام حنا كلما رآها ، مفخرا

- (٧) سعيد حورانية ، مقدمة رواية حنا مينه « الشراع والمعاصفة » منشورات مكتبة ريمون الجديدة ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٦ .  
(٨) جورج لوكاش ، دراسات في الواقعية ، الترجمة العربية ، ص ٢٥١ .  
(٩) محمد الجزائري ، الاختفاء حالة نصالية ، مجلة الاداب ، عدد يوليو ( تموز ) ١٩٧٠ .  
(١٠) فاروق عبد القادر ، قراءة في روايات حنا مينه ، مجلة الهلال ، عدد اغسطس ١٩٧١ .  
(١١) فالي شكري ، القرية والانتماء في ادب حنا مينه ، مجللة الطليعة ، القاهرة عدد اكتوبر ١٩٧٠ .  
(١٢) فاضل السباعي ، البحث عن النضال المفقود ، مجلة الاداب ، عدد مارس ( آذار ) ١٩٧٠ .

- (١٢) شوقي بغدادي ، مقدمة رواية حنا مينه « المصابيح الزرق » ، الطبعة الثانية ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٨ .  
(١٤) علي الاكياس ، مجلة المعرفة السورية ، دمشق عدد ابريل ( نيسان ) ١٩٧٠ ، ص ١١٦ .

الكثير من الشخصيات الحقيقية التي تعرف اليها حنا في حياته ، وسنجد حنا مينه أيضا في هذه الروايات . غير ان بنية حنا مينه الضعيفة لم تمكنه من العمل اليدوي في دفع العربات الحديدية وباءت كل محاولاته الجسدية بالفشل ، وعرف مرارة الهزيمة المبكرة ، « وها أنا في معاناة مذلة ، أضيف بهزيمتي ، خيطا جديدا الى الحبل الذي فتلته لنا الدهر كما يقول والدي » (١٥) . ووجد في الكتابة رد الاعتبار الاول لانسانيته المهذرة ، وكانت الكتابة بالفرشاة وعلى الاكياس « أخذت الفرشاة ورسمت على الارض الاحرف المطلوبة . وعندما رفعت رأسي ، تلقيت أول رد اعتبار في دهشة الاعين من حولي ، وللحال سرى نسغ الحياة في دمي ، وحملت سطل الحبر والفرشاة برعدة امتزج فيها الارتباك بالفرح بالقوة ، بكل المشاعر المتباينة أمام تحول عنيف ومفاجئ » (١٦) . وهكذا فرضت عليه ظروف الفقر وسوء التغذية وما نتج عنها من ضعف البنية وعدم صلاحيته للعمل اليدوي - ممارسة الكتابة كرد اعتبار لحنا مينه الانسان الذي عانى مرارات الفشل والعذاب منذ طفولته . وفي مخزن الشاطئ بدأ حنا مينه أولى قراءاته الادبية « بألف ليلة وليلة » . وظل يجمع منذ طفولته بين معرفة الواقع ومعرفة الكتب ، غير ان للولى النصيب الاوفر في تكوينه كإنسان وككاتب أيضا . وعلى شواطئ بحر اسكندرون عرف حنا مينه الإبطل والاوغاد والعمال والبجارة والحمالين والحفاة والمشردين ، وستتري هذه النماذج البشرية رواياته بشخصياته الحية « من لحم ودم لا من ورق » . وكانت تجربة الكتابة « على الاكياس » الفارغة على ميناء الاسكندرون وقراءة « ألف ليلة وليلة » بداية تجربة الكتابة والقراءة لحنا مينه الاديب . وفي صباه أيضا بدأت تتشكل تجربته السياسية التقدمية من الواقع الحي وليس من الورق .

عندما انتقلت أسرة حنا مينه من ريف لواء اسكندرون الى المدينة المطلة على البحر ، لم تعش الأسرة البائسة حياة المدينة النظيفة ولكنها عاشت في منطقة مستنقع طينية تسمى « الصاز » في أكوخ سقوفها من القش وجدرانها من القصب والطين . ولندع حنا مينه يصف لنا هذه الحياة العفنة ، ولنعرف كيف واماذا اختار حنا مينه الماركسية فكرا ورؤيا . « الى الجنوب الغربي من مدينة اسكندرون في لوانسا السليبي ، كانت منطقة سبخة واطنة عن مستوى المدينة ، ذات رائحة ننتة كالتي لمعامل الاسمنت ، ملأى بأدغال البردى الصغيرة الابريسة كالمسلات . وكانت الأدغال ترتفع حتى منتصف قامة الانسان ، فياتي الحلييون في الصيف يصيدون الطويل منها ويجففونه لصنع الحصر . ونحن الذين طردنا المدينة ، أو جئناها من اصقاع شتى ولم نجد لنا فيها مكانا ، احتوتنا هذه المنطقة السبخة التي كنا نسميها « الصاز » SAZ ( كلمة تركية معناها مستنقع ) ، وانزلتنا بين أدغالها النامية في مياه مالحة ، مما يخلفه البحر عند انحساره في الصيف ، أو تنز به الارض المستنقعية على مدى العام . واعتبرنا هكذا نوعا اضافيا من الحشرات والزواحف التي ترتع فيها ، وجيرانا أدنى مرتبة من البهائم التي كانت تعيش على التل ، حيث تطرح قمامة المدينة ، فتنبش فيها الخنازير ، ونزاحمها نحن في النيش ، للعثور على ما يصلح للاكل أو الاستعمال ، أو للاتنفاع بثمرته الزهيد من اصحاب «الروبايكيا» . » (١٧) . كان غوركي أيضا يلتقط طعامه بجمع الفضلات من القمامة ، أو بجمع العظام والخرق البالية وبيعها لقساء كوبيكات قليلة (١٨) . وفي هذه البيئة القذرة المعذمة المريضة حيث

يغدو الامل الوحيد في ترويح الاساطير الفيية ، طالع حنا مينه مع أهل المستنقع اسم لينين لاول مرة محفورا على شجرة كبيرة ، حفره لاول مرة عامل بالسكة الحديد . وعرف حنا مع سكان المستنقع اسم لينين كبطل خلع الملك عن العرش وفتح الفصول للقراء ، ووزع الارض على الفلاحين البؤساء ، ونشر العدل بين الناس ، وهكذا استبدل حنا مينه الامل الثوري بالحلم الفيي ، فعرف لينين والماركسية صيا معرفة واقعية من واقع الحياة وليس من الكتب والفكر المجرى . ويروي حنا مينه بأسلوبه المشوق كيف قدم البوليس الفرنسي لازالة اسم لينين والقبض على عامل السكة الحديد ، مما أدخل أهل المنطقه في صراع مع البوليس لكتابة اسم لينين على كل الاشجار ، لقد صار لينين املا للخلاص وحلما ثوريا لتحقيق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية دون مصطلحات أو نظريات . « فجأة ادرك المخوضون في الوحول » ان الخلاص من حي « الصاز » ممكن ، وان هذه اللعنة ليست ابدية . وتحذروا بذلك امامنا ، نحن الصغار ، وهكذا تمسقتنا ، ولدا على كتف آخر ، واعدنا اسم لينين ، على شجرة الكينا العتيقة الى ما كان عليه » (١٩) .

وتطورت تجربة الكتابة والقراءة بتقلب حنا مينه في مهن شتى واختلاطه بانماط مختلفة من الناس . فعمل مستخدما في محل بقالة ومساعدنا لصيدلي وحلاقا ، وطوال كل هذا كان نهمة للقراءة يزداد . « لم يكن الومسى والقص لينسياني المطالعة ، فكنت لا أترك جريدة ولا كتابا يقع بين يدي ، وكانت زوجة الصيدلي تزودني بالكتب ، وكنت أحلم بالبحر والسفر والمعارك والثورة » . وسنلاحظ ان غوركي أيضا اعتمد في قراءاته على ما زودته به زوجة لحنا مينه ثم سيدة اخرى من الجيران . وقد ذكر حنا مينه جانبا من بدم عمله كحلاق وصفا طريفا مؤلما في « رسالة من أمي » : « وتذكرت يوم فتحنا له الدكان ، وأخذنا له المرايا من عندنا ، والكرسي من بيت عمه ، وبقيت مشكلة البنطلون ، لان الزبائن ضحكوا عليه وقالوا هذا الولد بالبنطلون القصير راح يتعلم الحلاقة بذقنا ، ورفضوا الحلاقة عنده ، فجاء الى البيت مكسور خاطر ، واشتكى من هذه الجهة ، حتى جرح قلبي ، فحملت بنطلوني العتيق الى جواد الخطاط ، الخياط في البازار ، فقلبه له ( ورتاه ) من القاعدة والاكمام ، والبسناه اياه بعد ان وضعنا بدل الزنار ( تكة ) عمي حتى ( لا يقشط ) من خصره الذي يدخل فيه ( المحبس ) » (٢٠) .

في عام ١٩٢٩ استولت تركيا بالتواطؤ مع فرنسا على لسواء اسكندرون وهاجر حنا مينه مع أسرته الى اللاذقية ، مسقط رأسه ، ليفتتح محل حلاقة وليخاطب البحارة وعمال البحر ويخترن ذكرياتهم ومعاركهم ليصباها في رواياته . وعرف حنا السجن أثناء اشتراكه في مظاهرة من مظاهرات طلب الاستقلال في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وفي السجن ولد حنا مينه ميلادا جديدا ككاتب تقدمي عرك الحياة وعركته . وأخذ في كتابة القصص لصحف دمشق متأثرا بغوركي - على حد تعبير سعيد حورانية - (٢١) فلاقت قصصه - الجديدة - على الادب العربي السوري - رواجاً . وفي عام ١٩٤٦ أغلق حنا محل الحلاقة وسافر الى بيروت ليرى العالم بناء على نصيحة صديق قادم من معارك العلمين بعد أن تطوع في جيوش الحلفاء . وفي بيروت - حيث سافر اليها باحثا عن عمل - اقترب حنا مينه كثيرا من نموذج مكسيم غوركي

( ١٩ ) حنا مينه ، ناظم حكمت وقضايا أدبية وفكرية ، ص ٢٤٦ .  
( ٢٠ ) حنا مينه ، رسالة من أمي ، مجلة المعرفة السورية ، عدد مارس ( آذار ) . ١٩٧٠ .  
( ٢١ ) سعيد حورانية ، مقدمة رواية حنا مينه « الشراع والمعاصفة » ص ٧ و ٨ .

( ١٥ ) المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

( ١٦ ) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

( ١٧ ) حنا مينه ، ناظم حكمت وقضايا أدبية وفكرية ، ص ٢٤٢ .

( ١٨ ) أحمد محمد عطية ، مكسيم غوركي : حياته وأدبه ، ص ٣٤ ،

نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ، ١٩٦٦ .

وترجم له روايته « فرانكا اوليسوفا » ترجمة جميلة ، وعمل مراسلا لجريدة « الانشاء » الدمشقية حتى استدعي للعمل فيها سنة ١٩٤٧ ، وتدرج حنا في العمل بجريدة « الانشاء » محررا أدبيا ومختصا بالسياسة الخارجية ، فريسا لتحرير جريدة « الانشاء » . وأسهم في الحركة السياسية التقدمية في سوريا ، واشترك في انشاء « رابطة الكتاب السوريين » ثم « رابطة الكتاب العرب » وأصدر روايته الاولى « المصابيح الزرق » ( ١٩٥٤ ) .

وبعد ، ليست هذه سوى بعض خطوط من حياة حنا مينه العريضة والتي نتمنى لها المزيد من الازدهار والامتداد ، ولكنني قصدت بهذا المدخل من حياة حنا مينه ، الى تحسديد نمط الحياة والتجارب والشخصيات التي انعكست بدورها على أدبه ، والتي تعيننا على فهمه وتحليله ، أما السيرة أو الترجمة الذاتية لحنا مينه فليست مقصدي وربما لا يقدر عليها غير حنا مينه نفسه الذي أعرف انه كتب جزءا كبيرا من سيرته ، فأمل أن يتمه وأن نراه منشورا في وقت قريب . وسنلج من هذه الخطوط لحياة حنا مينه ان أهم المؤثرات في حياته وأدبه هي : ( ١ ) مخالطته للعمال والمشردين والبؤساء . ( ٢ ) معاناة حيائية لعالم البحر والحمالين والصيداين . ( ٣ ) معرفته الكتابة وممارستها كرد اعتبار لانسانيته المهترئة في الفقر والجوع والكذب . ( ٤ ) تجربته السياسية التقدمية النابعة من واقع الحياة وليس من الكتب النظرية المجردة وما استلزمته حياته كمناضل ثوري متمم . ولعل هذا كله يفسر لماذا لم يقف حنا مينه من أبطال الكادحين موقف المتفرج أو المصور أو المتعاطف ، ذلك انه هو نفسه جزء لا يتجزأ من أبطاله ، من طبقتهم ، من حياتهم البائسة المذبذبة ، من نضالهم الجبار المفعم بالأمال العظيمة ، لذا فهو في طبيعة الكتاب المعبرين عن نضال الكادحين من أجل غد أفضل ، لانه يتحدث بلقمتهم وينطلق من أعماقهم التي خبرها كواحد منهم .

- ٣ -

احترف حنا مينه الكتابة السياسية والأدبية ابتداء من عام ١٩٤٦ كروية وانفتاح للعالم ، بعد أن وجد في الكتابة - خلال صباه - نوعا من رد الاعتبار لانسانيته المهترئة . ولاحتراف حنا الكتابة ، في أعقاب اغلاقه محل الحلقة الخاص به بمدينة اللاذقية ، قصة طريفة رواها حنا لسعيد حورانية : « ذات يوم من سنة ١٩٤٦ وقف على باب الدكان كهل وأخذ يحرق في بامان ، كان في عينيه شفقة لا حد لها . تفضل يا عم .. تردد قليلا ثم دخل وعيناه لا تزالان تحدقان بكل شيء وقال فجأة : - هل لا تزال هنا ؟ - ماذا تعني انني لا أزال هنا ؟ - ألا تذكرني؟ لقد حلقت عندك منذ أربعة أعوام وكنت تريد أن تذهب الى العالم ، وها أنا قد ذهبت وجبت الدنيا : تطوعت في جيش الحلفاء وحاربت في كل مكان وانتصرت في العلمين على رومل .. آه لشد ما رأيت من أشياء وها أنا أعود لاراك لا تزال هنا ، نفس الوقفة ، تمسك بالقص وبالمشط » . وأحس حنا بطعنة سيف ، ونظر الى الرجل وهو يتعد ثم سرح معاونه ونقده أجره « كنت أحس وأنا أغلق الدكان انني أفتح أبواب روحي ، وأعطيت أمي أكثر ما ادخرته طوال عملي في الدكان وحملت متاعني وذهبت الى بيروت » ( ٢٢ ) .

كتب حنا مينه روايته الاولى « المصابيح الزرق » خلال السنوات الثلاث الاولى من الخمسينيات ( ٢٣ ) ، ونشرها في العام الرابع ( ١٩٥٤ ) . وهي فترة اتسمت بغلبة الرؤية السياسية على الأدب السوري وجاءت بعد مخاض نفسي - طوال العشرينيات والثلاثينيات -

( ٢٢ ) سعيد حورانية ، مقدمة رواية « الشراع والعاصفة » ، ص ٨ .  
( ٢٣ ) شوقي بغداد ، مقدمة رواية « المصابيح الزرق » ، ص ٧ .

استغرقت فيه السياسة الادباء في سوريا ( ٢٤ ) . والخمسينيات فترة هامة من فترات التفتح والميلاد الصحيح للقصة السورية التي يجمع نقادها على تاريخها بدءا من سنة ١٩٣٠ ( ٢٥ ) . وقد بدأت الرواية العربية في سوريا بالاعتباس متأثرة بالأدب الغربي - الفرنسي على وجه الخصوص - ثم الروسي ، وبالرومانسية والعاطفية ، ولعبت كتابات المنفلوطي دورا هاما في التأثير في عدد كبير من القاصين السوريين ، إذ احتل المنفلوطي جانبا هاما من تأثير الأدب العربي الحديث في مصر . بدأ شكيب الجابري « أول رواي سوري ذو وزن فني » ( ٢٦ ) روايته الاولى « نهم » بنقل أجواء أجنبية غريبة وأسماء أجنبية . وهي نفس بداية الرواية العربية في مصر في أواخر القرن التاسع عشر ( ٢٧ ) .

لذا كانت فترة الخمسينيات - فترة ازدهار ثقافي وثقة بخصائص الأدب السوري وتكامله ، وانفتاح على الفكر والأدب في الشرق والغرب مع اهتمام خاص بالأدب الروسي الذي ترجمت منه المؤلفات الكاملة لشكوف ودوستوفسكي وغوركي وغيرهم . كما كانت الخمسينيات أيضا فترة زاهرة بالحريات في أعقاب تحقيق الاستقلال والقضاء على الثقافة الفرنسية وبخاصة التفتح الديمقراطي الكامل بعد انتهاء فترة الديكتاتوريات العسكرية في ١٩٥٤ .

وفي الخمسينيات بدأ أدب الواقعية الاشتراكية بحنا مينه في الرواية ( المصابيح الزرق ) وسعيد حورانية في القصة القصيرة ( وفي الناس المسرة ) . هكذا درج النقاد على تسمية هذا التيار القصصي في سوريا . ومع اني لا أجد في كتابات حنا مينه واقعية اشتراكية بل واقعية نقدية ، ولكن ربما تطلق عبارة أدب الواقعية على الكتاب الماركسيين تمييزا لهم عن كتاب الواقعية النقدية المنتهين للفكر أو للتنظيمات الماركسية .

ويلاحظ الباحث في نشأة وتطور الرواية العربية في سورية عدم تواجد أية دراسة كاملة عن الرواية السورية ، وربما يرجع ذلك أيضا الى ان الرواية كثيرا ما اختلقت بالقصة القصيرة دون تمييز في البناء الفني - ( وهذا ما جعل الفهرست الملحق بعدد القصص السورية المعاصرة من مجلة « المعرفة » السورية يجمع بين الروايات والمجموعات القصصية تحت عنوان القصة ) - ولتأخر ظهور الفنون القصصي في سوريا عن مثيله في مصر ولبنان وبعض الاقطار العربية الاخرى . وعندما كنت في سوريا في صيف ١٩٧١ حاولت العثور على اية دراسة كاملة مخصصة لتاريخ أو تحليل الرواية السورية فلم يدلني الاصدقاء الا على دراسة وحيدة عن القصة السورية بوجه عام لشاكر مصطفى « محاضرات عن القصة في سوريا حتى الحرب العالمية الثانية » ، وهي دراسة رائدة ولكنها قاصرة ، فمن ناحية تجمع بين

( ٢٤ ) نعيم حسن يافي ، التطور الفني لشكل القصة السورية القصيرة ، مجلة « الآداب » ، مايو ويونيو ١٩٦٥ . وراجع أيضا وجهة نظر صدقي اسماعيل وسعد الله ونوس ، مجلة « المعرفة » السورية ، عدد خاص عن القصة المعاصرة فسي سوريا ، فبراير ( شباط ) ١٩٧١ .

( ٢٥ ) راجع بحثي بدر الدين عردوكي ود. حسام الخطيب ، مجلة « المعرفة » السورية ، فبراير ١٩٧٠ .

( ٢٦ ) د. حسام الخطيب ، المؤثرات الاجنبية في القصة السورية الحديثة ، مجلة « المعرفة » ، فبراير ١٩٧١ .

( ٢٧ ) د. عبد المحسن طه بدر ، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ ، ص ٢١ و ١٢٠ وما بعدها .

الرواية والقصة القصيرة ، ومن جهة أخرى لا تتناول فترتي الخمسينيات والستينيات من تاريخ الرواية والقصة القصيرة في سوريا، وهما ازهى وأرقى سنوات النتاج الروائي والقصصي السوري . وذلك اذا سلمنا بان سنوات الثلاثينيات والاربعينيات لم تكن الا سنوات ولادة متعثرة للفن القصصي السوري ، وهي ككل سنوات البدء في جديد ، حافلة بالنواقص والأثرات الدخيلة على فن القصة السوري ذي الملامح الاصلية والتقدمة كما وصل اليها الان في أرقى صورته بالسبعينيات .

— ٤ —

ترسم « المصاييح الزرق » صورة واقعية للمجتمع العربي في سوريا ابان الاحتلال الفرنسي ، خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها . وسنجد ان نجيب محفوظ عمد الى تصوير المجتمع العربي المصري في نفس الوقت في روايته « زقاق المدق » ( ١٩٤٧ ) وربما بشكل آخر في روايته « خان الخليلي » ( ١٩٤٦ ) . لقد اهتمت الروايتان - المصاييح الزرق وزقاق المدق - بتقديم صورة واقعية لقطاع من المجتمع العربي واثار الاستعمار على البنيان الاجتماعي والافسرد والحياة .

في « المصاييح الزرق » اختار حنا مينه - ابن اللاذقية - مدينة اللاذقية الساحلية ، وفي « زقاق المدق » اختار نجيب محفوظ - ابن القاهرة - أحد الأزقة الخلفية لمدينة القاهرة وبالمقابل صورة من مجتمع العاهرات في القاهرة الراقية ( كذلك فعل حنا مينه في المصاييح الزرق ) . وفي الروايتين كان هدف الروائيين تصوير آسار وردود فعل الاستعمار والحرب العالمية الثانية على المجتمعين السوري والمصري . ربما علت النبرة الخطابية والاسلوب المباشر في رواية حنا مينه ، بينما تجنب نجيب محفوظ كل محاولة لتسييس روايته واعلاء النبرة التقريرية . ولعل هذا راجع الى اختلاف نوعية الرجلين السياسية ، فحنا مينه كاتب سياسي ملتزم ومنتم ، وهب حياته للنضال السياسي المنظم ووظف فنه لخدمة رؤيته السياسية ، بينما نجيب محفوظ فنان ورجل لم ينضم الى تنظيم ولم يشارك في الحياة السياسية بأكثر من مشاركة الرجل العادي ، واكتفى بعالم الفن للفكر والتعبير ( ٢٨ ) . ولان « المصاييح الزرق » صادرة في الخمسينيات فهي تمثل حالة الرواية العربية في تلك الفترة أصدق تمثيل ، في الشكل والمضمون .

فهي رواية واقعية تقليدية تماما تستخدم اسلوب الحكاية والتسلسل الزمني التاريخي ، وتعتمد على أسلوب السرد عن طريق راء مطلع على كل شيء ، وهو راء ثرثار حريص على ألا تفوتنا صغيرة او كبيرة من حياة شخصياته ومدينته ، انه ليصف كل شيء ، المباني والشوارع ، الناس والأشياء ، فكل شيء موضع عنايته كمنصور خارجي يستخدم أسلوب الوصف الخارجي ، وصف السطح الظاهر دون نفاذ الى الجوه ، وشخصياته مجردة مخططة لا تكاد ان تسير الا وفقا لافكار المؤلف وأوامره . لقد عرف حنا مينه واقعه معرفة تامة وعاناه واختزنه كاملا في « مخزن ماكولاته الادبية » على حد تعبيره نقلًا عن تشيكوف ، وما هو ذا يجتره كاملا دون ان يجرب الانتقاء والاختيار والاختصار والتلخيص . أقول هذا رغم التنبيه الحاد الصريح الذي صود به حنا روايته الاولى « كل شبه - اذا وجد - بين أبطال هذه الرواية وبين أي شخص آخر ، حي أو ميت ، هو من قبيل المصادفة ليس الا » .. أقول - رغم هذا التحذير ، الذي قد يعطي معنى مغايرا لما اراده المؤلف - ان الواقع منقول بدقة الى الفن . ومن الغريب اننا

( ٢٨ ) راجع بالتفصيل ، احمد محمد عطية ، مع نجيب محفوظ ، نشر وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٧١ .

سنجد مثل هذا التحذير في الكثير من الاعمال الادبية الاولى للكاتب العرب ، كنوع من تجنب الحرج مع شخصيات حية وموجودة في الواقع وفي الفن أيضا . فيبدو ان زخم الواقع وامتلاء الكاتب به يطغى على عمله الاول في الغالب ويكاد ان يخرج عن ضوابط الفن كاختيار وانتقاء من الواقع ما هو غني بالدلالات والرموز والإيحاءات ، وأيضا يحوله الى مجرد سرد ميكانيكي لاحداث وقعت ، بدلا من ممارسة الفن كتفكير في صور وكرؤيا للواقع . وحقا ان السرد هو احسدى السمات الرئيسية لفن الرواية ، ولكنه ليس السمة الوحيدة للرواية ، كما ان طبيعة السرد في الرواية تختلف عنها في الحكاية والتاريخ ، ذلك لان السرد الروائي لا يعرف التسلسل الزمني أو التاريخي . لقد تطور السرد الروائي ولم يعد يقتصر على التصوير الخارجي للحياة الاجتماعية ولرجل الشارع ، بقدر ما أصبح يعتمد على الرؤيا والنفوذ الى الاعماق الداخلية للانسان . ولم يعد دور الروائي هو دور السرد الخارجي ، وانما تكمن عبقرته الفنية في اختيار الصور والمشاهد الدالة تجنبًا للسطحية والمباشرة والتقرير . او كما كتب ر.م. البيريس: « ان الحياة المتعددة الاشكال الاجمالية البهمة تقتضي ايجاد نهج فني ( تكتيك ) في الرواية غير فن الراوي الذي لم يكن يهدف في نهاية المطاف الا ان يجذب الانتباه . وان حجم الحياة ورهافتها وتعقدتها تقتضي ذلك ايضا . ولقد شعر جيد ودون باسوس ، في الفترسة نفسها تقريبا ، بانهما في حاجة الى تصديق النهج الفني ذي الخط الواحد للسرد ، واستبداله بزج هذه الحقائق المختلفة ، وكذلك رغبة منهما في استحضار حقائق مختلفة جدا ، اجتماعية محض لدى الثاني ، وتكاد تكون فنية لدى الاول ، ولكن لا يكفي تليين التاريخ الروائي أو قلبه ، فقد نحصل على الكثافة الجديدة بوضع عدة وجهات نظر متجاوزة ، وبالعوض في كل من هذه الضمائر غوصا اعماق .. » « فالروائي كالمخرج في السينما ، لم يعد يعبر عن نفسه الا عن طريق اختيار المشاهد . بيد انه لم يعد يعبرها صوته . وان ما اختفى من الرواية هو صوت الراوي - واسلوبه اذن - وغدت الرواية مجموعة متتالية من الاحداث الموضوعية التي اختيرت بمهارة - او بالاحرى قطعت - في نقل حيادي للواقع : انه تركيب للحوادث اليومية » ( ٢٩ ) .

ليكن ما يقصده « البيريس » هو واقعية جديدة او « الواقعية موضوعية » على حد تعبيره ، وهي أرقى صور الواقعية في الرواية الحديثة ، ولهذا تبدو واقعية حنا مينه في « المصاييح الزرق » واقعية تقليدية تماما ، اذ تقوم على بناء من السرد التقريري المباشر والوصف الخارجي ، وتلك كانت صورة الرواية العربية في الخمسينيات ، ولكنها ليست الصورة الفنية الصحيحة للرواية ، اذ لا يعني هذا الا تخلف البناء الفني للرواية العربية في الخمسينيات عن اصول الفن الروائي التي أسسها وقننها الناقد والروائي الانكليزي « هنري جيمس » منذ أواخر القرن التاسع عشر ( فن الرواية ١٨٨٤ ) والتي ركز فيها على أهمية الاعتماد على الحدث والصورة بدلا من الخبر والوصف ، والتعبير بدلا من التقرير ، وتضائل دور الراوي التقليدي الى حد يقترب من الاختفاء بينما تطلبت الصورة واستبعدت العظات والتقرير ( ٣٠ ) . ولقد عرف هنري جيمس الرواية بانها « انطباع شخصي مباشر

( ٢٩ ) ر. م. البيريس ، تاريخ الرواية الحديثة ، ترجمة جورج سالم ، منشورات عويدات بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٧ ، ص ١٩٤ و ٣٧٠ .

( ٣٠ ) د. انجيل بطرس سمعان ، نظرية الرواية في الادب الانكليزي الحديث ، ترجمة دراسات هنري جيمس وكونراد وفرجينيا وولف ولورنس ولبلوك - الهيئة المصرية للنشر ، ١٩٧١ ، ص ٢٤ و ٢٥ .

وشخصياتها ، يبدأ في سرد أحداثها وتنمية شخصياتها وتقديم تنوعات على لحنها الأساسي ، وهو تصوير حياة أهمل اللاذقية من الفقراء والكادحين والعاطلين في ظلام الحرب العالمية الثانية ، وتأثير هذه الحرب على حياتهم وسلوكهم وفكرهم . وهنا سنلمس أبطال حنا مينه وهم يجوعون ويسبون بأقذع الالفاظ فنشعر بهم شخصيات من لحم ودم حقا طالما ابتعدوا عن ترديد الشعارات السياسية وعن اتخاذ المواقف السياسية المباشرة . ولكن كثيرا ما يلجأ حنا مينه الى لغة السرد المباشر عند التعريف بشخصياته كشخصية « المختار » على عكس ما فعل عندما عرفنا بشخصية « الجابي » صاحب المقهى ، من خلال الصور المتتابعة لشجاره مع زبائنه المفلسين وحواره الواقعي معهم . ويكتفي حنا بتصوير شخصية فارس كمرآة لهذه الشخصيات ولهذه الحياة العاطلة المثيرة للضجر منذ أتمت الحرب المدينة وأطلقت البطالة ورفعت الاسعار وأخذت الضروريات . فارس - بطل الرواية - ابن لابوين كادحين ، فالاب عامل بناء والام عاملة تبغ - فتى مراهق في عامه السادس عشر أدركته البطالة مع الإطالة الاولى للحرب العالمية الثانية ، فراح يتسكع في مدينة اللاذقية الساحلية ، ومن خلاله تارة ومن خلال سرد الراوي المطلع على كل شيء تارات ، نزداد تعرفا الى مشكلة أهل اللاذقية في ظل الحرب والاستعمار والمجتمع السوري المتخلف آنذ والذي يعاني من الفوارق الطبقيّة الكبيرة . ولأن فارس هو حنا مينه فان شخصية فارس مرسومة بحسب ذلك واقعية لا تعرف الاحادية والهندسية ، فتجمع حياته الى جانب البطالة والبؤس قصة حب فامضة لجارته الصغيرة « رندة » ، وتفتتح آفاقه على مناسف الحرب والعسكرة والظلام والحديث عن المارك ، جنبا الى جنب مع الصراع من أجل الحصول على لقمة العيش والتسكع بالقاهي والارصفة، فهو يستمع الى نبض الناس الكادحين في اللاذقية وفي سوريا كلها خلال الحرب العالمية الثانية ، حيث سوريا محتلة بقوات الانتداب الفرنسي ومحكومة باوضاع اجتماعية وطبقية بشعة . فترى ان عام ١٩٣٩ هو عام الميلاد الحقيقي والانفتاح الكامل لشخصية فارس ، وهو ما حدث لحنا مينه في مطلع ذلك العام عندما تفتح وعيه كاملا على واقعة نزع لواء الاسكندرون وضمه الى تركيا بالاتفاق مع فرنسا ، وهجرة حنا مع أسرته وآلاف الاسر السورية الى مدينة اللاذقية . وسنجد هذا التطابق بين حنا وفارس يزداد كلما توغلنا في فصول الرواية .

للحياة « وانها ترضي شهوة الانسان للصورة ، لذا « فالرواية اكثر الصور جميعا شمولا واكثرها مرونة » (٢١) . وظلت كلمات هنري جيمس عن فن الرواية سائدة حتى كررها الناقد الكبير البيريس بنفس الالفاظ تقريبا : « ان الرواية في اوسع تعاريفها هي انطباع شخصي عن الحياة ، وهذا الانطباع هو الذي يشكل قيمتها بالدرجة الاولى ، وتتفاوت هذه القيمة على قدر كثافة انطباعات المبدع » (٢٢) . وقد أكد هنري جيمس على ضرورة الواقعية في الرواية قائلا : « من الثابت انك لن تستطيع كتابة رواية الا اذا كنت تمتلك حسا واقعيا » (٢٣) .

والآن عودة الى رواية حنا مينه الاولى « المصابيح الزرق » التي نعرف من شوقي بغدادي في تقديمه الشجاع للرواية بان حنا كتبها كأولى محاولاته في الرواية بعد تجارب السنوات السابقة على الخمسينيات في القصة القصيرة غلب عليها « القالب المباشر الخطابي . هذا القالب الذي قاومه كثيرا ، ثم تحرر منه في قصصه الاخيرة » (٢٤) .

في بداية الرواية نتعرف على « فارس » بطل الرواية وأسرته وازمته الناجمة عن البطالة والحرب التي أخذت صاحب المتجر الذي يعمل به . و زمن الرواية بداية الحرب العالمية الثانية ابتداء من ٣ سبتمبر ١٩٣٩ . ويقودنا حديث الحرب الى ذكريات ابي فارس عن حرب « سفر برك » التركية وهربه من صفوف الجيش التركي . ثم يقودنا سرد المؤلف الى التعرف على مدينة اللاذقية والتقسيم الطبقي التمسفي للمدينة الى أثرياء وفقراء ، فالأثرياء يسكنون الطوابق العليا والفقراء يسكنون الطوابق السفلى !؟ تقسيم هندسي فكري وليس واقعي . وسنجد السكان يشتمون فرنسا ويقومون بنشاط سياسي جماعي غريب ، فهم يزبلون اللقطة التي تحمل اسم فرنسا كلما وضعتها سلطات الانتداب الفرنسي . ولعل هذه الواقعة تذكرنا بواقعة المباراة الجماعية بين أهل المستنقع - في لواء الاسكندرون - على كتابة اسم لينين على الاشجار ، التي رواها حنا في كتابه عن « ناظم حكمت وقضايا أدبية وفكرية » . وسنجد الشخصيات المسطحة منذ البداية ، فالأثرياء يتحنون للمستعمرين الفرنسيين أما الفقراء فهم الوطنيون الشرفاء !؟ ونتعرف على شخصيات الرواية من سكان الدار التي تسكنها أسرة فارس وأهل اللاذقية من البؤساء والمشردين وصغار الحرفيين والعاطلين، وهنا فقط نطالع عالم حنا مينه الحقيقي الذي عاشه وخبره جيدا . ونعرف كيف يخيم البؤس والجوع والمشاجرات الزوجية والخلافات القاتلة بين أبناء الاسرة الواحدة ، ولكنها لا تلبث أن تصفو مع كاس من العرق وبعض الطعام البسيط اذا توافر العمل والاجسر القليل ، وعندئذ نعرف ، الدار الرقص والمرح والمواويل الشامية . ثم يدلنا حنا مينه بجملة تقريرية واحدة على ان بدء الحرب انتهى كل هذا المرح وبدات الظلمة تزحف والمصابيح تدهن باللون الأزرق ، والبطالة والكتابة تخيم على الحياة في اللاذقية . لقد رسم حنا مينه صورة صادقة لحياة البؤساء والفقراء والمشوهين والمشردين في مرحهم وخلافاتهم ، غير انه سيعكف على تصوير حياة أسرة فارس وأهل الدار وسكان اللاذقية بوجه عام في ظل الحرب العالمية الثانية . وعندما يفرغ حنا مينه من تعريفنا على عجل بأبطال الرواية وزماتها ومكانها

وفي « رسالة من أمي » كتب حنا مينه نقلا عن أمه مؤكدا تواجد شخصيات رواياته في الواقع المعاش : « كذلك أخبرك ان المختار عامي عليك ، لانك قلت عن بنته في القصة ان رجليها مثل قصب الليرة ، هذا عيب ولا يجوز ، واذا بارت البنت تكون خبيثتها في رقبته ، ومريم السودا تحبك ، فلماذا بشعتها في عيني زوجها نايف الفحل ؟ وأمس ذق الباب رجل طويل أحمر العينين ، اسمه خليل العريسان وسألني عنك ، فقلت له ابني في بلاد الشام ، فقال : ابنك كتبتني ، وأنا عندي قصص كثيرة مفيدة له ، فحين يأتي ابعتي خلفي . واعطاني عنوانه وصورته وهو شاب بشاربين مثل عنتر ، من اربعين سنة ، فأخذتها وحفظتها مع العنوان لحين حضورك . وابن المعجان يسول ان الطروسي جده » (٢٥) . ويضيف حنا مينه الى هذه الفقرة فسي الهامش موضعا ان الاسماء الواردة في هذه الرسالة هي اسماء الشخصيات في روايتي « المصابيح الزرق » و « الشراع والعاصفة » . وبالإضافة الى اعتماد الراوي على اللغة التقريرية والاستلغوب المباشر ، كثيرا ما يوجه الراوي الانتقادات او السخرجات أو السباب الى شخصيات روايته ، كقوله - مثلا وليس حصرا - « ويكتسب عرضي

( ٢١ ) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

( ٢٢ ) م.م. البيريس ، تاريخ الرواية الحديثة ، ص ٤٦٨ .

( ٢٣ ) فن الرواية ، هنري جيمس ، أسس النقد الادبي الحديث ، ترجمة السيدة هيفاء هاشم ، نشر وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٦٦ ، ص ١٢١ .

( ٢٤ ) شوقي بغدادي ، مقدمة المصابيح الزرق ، ص ١٠ .

( ٢٥ ) حنا مينه ، رسالة من أمي ، مجلة « المعرفة » السورية ، عدد مارس ١٩٧٠ .

( النعجة ) الواقعة بقرية بقدها المشوق .. » و « كان الصفتلي من هذه الناحية ( ندلا ) عتيقا » ( ٣٦ ) . أو التقديم لكل صورة أو حوار بمقدمة تقريرية تلخص الموقف الذي تعبر عنه الصورة بشكل فني غير مباشر . وقد اتبع حنا هذا الأسلوب في معظم صفحات روايته . ولعل نموذج شخصية المختار « جريس » كافية للتدليل على هذه الأوصاف التقريرية المصاغة بشكل نهائي فاطح ( ص ٦٩ و ٧٠ و ٧١ ) . وكان أفضل لو اكتفى الكاتب بأسلوب الصور المتفتاة الدالة والموحية كما فعل عندما صور بصدق فني صور التناحر بين الناس على الضروريات الاستهلاكية كالخبز والكاكاز ، والظلام والفقر والبطالة والاستغلال والجشع وكل تداعيات الحرب وآثارها على حياة الإنسان العربي في مدينته ( اللاذقية ) ، وهي كلها آثار اقتصادية واجتماعية ونفسية بالإضافة الى الأخرى المعروفة للحروب من الدمار والرعب ودفع الشباب الى أتون المعارك الاستعمارية كوقود لا كبر أصحاب قضية ومبدأ كما يحدث في حروب التحرير . وايضا من الصور ذات الأثر الهام في تطور الرواية ، المعركة الوحشية التي دارت بين الناس حول الخبز والتي أدت الى اعتقال فارس بطل الرواية مع مجموعة من الناس الفاتلين من أجل لقمة العيش بمعناها المباشر .

غير ان ثراء التجربة والمعاناة ووفرة المخزون في مخزن حنا الأدبي جعله حريصا على تقديم صور الحياة في اللاذقية كبانوراما شاملة ، وبخاصة خبرته بحياة الصيادين والمشردين والعمال التي دفعته الى الزج بها في الرواية دون داع أو ضرورة فنية أو موضوعية ، وهي تلك الأجزاء التي يمكن الاستغناء عنها دون ان يتأثر البناء الفني للرواية مثل حكاية الصيادين في الرواية . فكما هو واضح ان الرواية مهتمة أساسا بتصوير حياة الناس في اللاذقية في ظل الحرب العالمية الثانية والآثار التي أحدثتها هذه الحرب في مجتمع اللاذقية وحياة الناس في بلد عربي مستعمر ، ومن ثم فقد كان من الإيجاب على الروائي أن يبعج جماع نفسه ويستبعد كل ما لا يخدم غرضه وكل ما لا يسهم في دفع حركة الرواية وتطوير أحداثها وإبراز دلالتها .

اعتقل حنا في مظاهرة بمدينته اللاذقية ، واعتقل فارس ايضا في ما يشبه المظاهرة حول مخبز بمدينته اللاذقية ، وقد اعترف حنا بان تجربة السجن ( ٣٧ ) كان لها النصب الأكبر في تفتح وعييه وآفاقه ودفعه الى دروب النضال والمعرفة ، وكذلك فعلت تجربة السجن بفارس بطل الرواية ، بل ان تجربة السجن تؤثر حياة الناس في الرواية وسيستنها ، فقد تحول الناس الى مواجهة ثورية مع جنود المستعمرين الفرنسيين ، وكذلك تحول فارس الى انسان آخر ولكن غير سياسي في التطبيق . ويحدثنا حنا في مقدمة روايته « الشراع والعاصفة » : « لقد كان السجن المعلم الأول لي ، لقد قرأت فيه كثيرا من الكتب ، وكنت أرتعش أمام كل كلمة جديدة ، وكان سجين مثقف يشرح لي معاني الكلمات الصعبة ، وكنت أبكي من الفرح » . ويحدثنا حنا في ملاحظة علامتين مميزتين له ، الأولى تشابه تجربته مع تجربة مكسيم غوركي عندما تعرف الى المنفي الثوري روماس الذي قاده الى المعرفة الثورية وصراعات النضال اليومي ( ٣٨ ) ( كما كتب غوركي عن الطباخ الذي فتتح آفاقه على الكتب لأول مرة ) ، والثانية هي الامتزاج الكامل بين حياة حنا ومعاناته اليومية وبين

( ٣٦ ) المصباح الزرق ، ص ٧٩ و ٨٢ .

( ٣٧ ) مقدمة رواية « الشراع والعاصفة » ، ص ٧ .

( ٣٨ ) مكسيم غوركي ، مع الفلاحين ( جامعاتي ) ، ترجمة احمد محمد عطية ، نشر دار الفكر العربي بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٥٧ .

أدبه ، عندما ينقل لنا أيضا صورة ذلك السجين الثوري المثقف في شخصية السجين الثوري المثقف « عبد القادر » زميله بالسجن في روايته « المصباح الزرق » ، وقد صور حنا في صورة المناضل الثوري الصلب الشجاع والمعلم المثقف .

نحن نعرف من عرضنا السابق لبعض الجوانب من حياة حنا مينه ، ان اعتزاله مهنة الحلاقة وبداية احترافه للكتابة جاء بعد مواجهة له مع صديق سافر الى ليبيا وحارب في صفوف الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، وفي روايته « المصباح الزرق » سنجد فارس بطل الرواية يلتقي بصديق له خلال العمل في حفر « الملاحي » لحساب الفرنسيين - بعد تجارب جنسية مرة واجه فيها شبح جنود الاستعمار الاجنبي في كل مكان - وينطوعان للقتال في صفوف الحلفاء بليبيا أيضا . وجاء سفر فارس بمثابة تحول آخر بعد عبارة مثيرة قالها صديقه « نجوم » : « لا شيء في ليبيا سوى الحرب . اما ان تقتل أو تقتل ، والنتيجة واحدة . لقد عفت نقل الحصى وحفر الملاحي والنوم على الارصفة . ثم ان لي حبيبة اريد الزواج بها ، فما تفعل بي اذا لم أوفر لها المال ، ولماذا نحب اذا لم نفكر بالزواج ؟ » ( ٣٩ ) . وتلك كانت أزمة فارس ، فرحلا . كذلك جاء تحول حنا بعد كلمات صديقه العائد من تجربة الحرب في ليبيا التي أشرنا اليها من قبل في هذه الدراسة . ان شخصية فارس هي شخصية من لحم ودم حنا على حد تعبير حنا مينه عن الشخصيات المكتوبة بعد معاناة واقعية . فهي ليست شخصية أحادية أو خطابية أو سياسية كاملة الانتساء أو مخططة . شخصية شاب عربي سوري كونه المعاناة ودمرت أحداث الحرب العالمية الثانية وآثارها على الوطن المحتل . وقد أجاد حنا مينه رسم هذه الشخصية الإنسانية الحية وفي تصوير تطورها وتأزدها وآثار وجود الاحتلال الفرنسي على أزمته ، وكيف أبرزت التخريب والتلوث الذي تركته علاقات فارس بالمعلمة العاهرة الفرنسيين ، وهي آثار أودت بتجربة فارس في السجن الى الهباء مثلما حطمت تجربة الحب النظيف مع جارتة « رندا » . وقد نجحت الرواية في تصوير الصراع الداخلي بين شخصية المناضل الوطني وشخصية العاطل اللانتمى ، والتي اختتمت بالهروب الى صفوف الحلفاء - وبينهم الفرنسيون - تحت وهم محاربة الألمان حيث النهاية لعجاة فارس بطل الرواية . واذ لم تكن شخصية فارس عاملا مساندا لابراز فكرة الرواية السياسية ، فقد استغل حنا شخصية السجين المناضل المثقف عبد القادر لختام الرواية ختاما سياسيا يتفق وأفكاره السياسية وخبرته بالواقع السياسي لسوريا ، فقد انتهت الحرب وبدأت المظاهرات طلبا للجداء والاستقلال . وجاء الختام الخاص بالمظاهرات ختاما سياسيا صارخا وتقريبيا مباشرا بعيدا عن لغة الفن الهامسة ، لغة الصور التي لا تعرف المباشرة .

ولكن أليس من واجب هذه الدراسة أن تلم أيضا بكيفية استفادة أدب حنا مينه من تجاربه الحياتية ومعاناته ، الا يسهم هذا كله في صدق التعبير وحيوية الشخصيات ؟ نعم لم يسهم كل هذا في الولوج الى العالم الداخلي لشخصيات رواية حنا الأولى « المصباح الزرق » فيما عدا شخصية فارس بطل الرواية التي تحمل الكثير من شخصية حنا مينه نفسه وتجاربه ومعاناته ، ولكن نوعية الحياة معبر عنها بحنكة وخبرة . لقد عاش حنا مينه حياة العمال ونقلها في روايته الأولى من خلال عمل أم فارس في أحد مصانع التبغ السورية في اللاذقية . حقا ان بعض التعبيرات والصور قد نجدها متشابهة مع مثيلاتها في « الام » رواية غوركي ( مثل : تقي المستودع رؤوسا بشرية

( ٣٩ ) المصباح الزرق ، ص ٢٥٠ .

الادبية . ذلك ان التناظر بين تجارب حنا مينه ومعاناته الحياتية وأدبه هي المفتاح والدليل لفهم أدب حنا مينه - فسي رأيي - اذ ان الامتزاج بين الفكر الاشتراكي ومدارس الاشتراكية الادبية والتجارب الفكرية الاشتراكية ظل بعيدا عن التأثير في أدب حنا مينه حتى عام ١٩٦٩ ، عندما صدرت روايته الثالثة « الثلج يأتي من النافذة » ، وقد حقق حنا مينه ذلك المذاق الحيائي والحس الواقعي الخبثير للرواية السورية بنقله الفني لهذه التجارب الواقعية الفذة في روايته « المصاييح الزرق » و « الشراع والعاصفة » ، وليس بانتمائيه للاشتراكية أو باستخدام أسلوب الواقعية الاشتراكية . فنجاح حنا مينه كروائي يرجع الى معايير فنية وصدق واقعي ، وخبرة مغمسة بالحياة . وواقعية حنا النقدية ليست متعارضة مع فهمه الاشتراكي أو مع الواقعية الاشتراكية ، وفي كتابه « معنى الواقعية المعاصرة » توصل الناقد الماركسي العظيم جورج لوكاش - بعد مقارنة بين الواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية - الى ان الواقعية النقدية هي بمثابة الحليف للواقعية الاشتراكية ، وان الواقعية النقدية « مبررة ومرغوبة اجتماعيا في فترات الانتقال .. » ، « ومن الصعب أن نتوقع أن يكون كل نقد مصحوبا بحل ، أو أن يكون قائما على مبادئ ماركسية جامعة مانعة ، فهذا يؤدي الى تحطيم مجال الواقعية النقدية في المجتمع الاشتراكي تحطيمًا شديداً » (٤١) .

القاهرة

( ٤١ ) جورج لوكاش ، معنى الواقعية المعاصرة ، ترجمة الدكتور أمين العيوطي ، نشر دار المعارف بمصر ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١ ، ص ١٣٤ و ١٤٤ .

نسل الهواء الفاسد من وجوها كل لون ) (٤٠) ، ولكن الروائيين مختلفان تماما - وجو القبو في مصنع التبغ وعلاقات الإنتاج وظروف العمل السيئة ، كل ذلك مكتوب بوعي وخبرة بذلك النوع الصعب من حياة عمال التبغ في سوريا - في زمن الرواية - تحت وطأة القهر الاستعماري والاجتماعي وفي ظلام الحرب العالمية الثانية . وكذلك يمكننا ان نرى هذه الميزة الهامة لتجربة حنا ومعاناته التي مكنته من التصوير الواقعي الصادق لحياة عمال التبغ والصيادين والعاقلين والمشردين وعمال الحفر ودنيا السجن ونماذج المسجونين السياسيين والعاديين . وقد كتب حنا مينه كل هذا بأسلوب الواقعية النقدية لا الواقعية الاشتراكية ، فالحس الاشتراكي والفهم الاشتراكي والتلويح بالحل الاشتراكي لم تكن واردة في رواية حنا الاولى « المصاييح الزرق » ، وكل ما كان ينشده حنا مينه بروايته الاولى هو التعبير عن تجربة سوريا الوطنية من أجل التحرر الوطني والاستقلال ، ومن خلال هذه التجربة كان ينقل اليها تجاربه الشخصية وخبراته بالحياة السورية السيئة التي كانت تعاني أيضا من الظلم الاجتماعي والفساد والبؤس والفوارق الطبقة الكبيرة ، موجها النقد الى هذا النوع القاسي من الحياة ، ومكثفيا بتوجيه هذا النقد دون الطموح الى حل اشتراكي أو التلويح به ، ومن هنا فان الزج بحنا مينه في اطار الواقعية الاشتراكية ، عمل لا ينطوي على فهم حقيقي لادب حنا مينه ، وحكمي هنا ينصب على روايتي حنا « المصاييح الزرق » ( ١٩٥٤ ) و « الشراع والعاصفة » ( ١٩٦٦ ) . وقد صنف حنا مينه من قبل نقاد الادب السوري ضمن تيار الواقعية الاشتراكية بسبب انتمائيه السياسي للاشتراكية العلمية ، وليس بناء على تحليل نقدي لاعماله

( ٤٠ ) المصاييح الزرق ، ص ١٢٠ .

## الثورة والثورة المضادة

### نحو حساسية ثورية جديدة

تأليف هربرت ماركوز  
ترجمة جورج طرايبشي

في الوقت الذي توجه فيه الرأسمالية اهتمامها الاول الى اخماد حرائق التمرد والثورة داخل حدودها وخارجها على حد سواء ، تبدو انها شرعت باعادة تنظيم نفسها تحسبا وتحاشيا لخطر ما يزال غامضا لكنه كلي الحضور ، خطر حركة تعانق لاول مرة في التاريخ الكرة الارضية بأسرها . وازاء الاعراض الاولى لهذا الخطر المستطير تنكب الرأسمالية على تأسيس الثورة المضادة وتكريسها . هذا لا يعني انها لم تعد تنجب بنفسها حفاري قبرها ، ولكن وجوههم تختلف اليوم عما كان متوقعا ، كما لم يعد شاغلهم الاوحد تغيير العلاقات الانتاجية والطبقية ، وانما ايضا العلاقات بين الانسان والطبيعة ، طبيعته الذاتية والطبيعة المحيطة به ، وكلتاهما على حد سواء عرضة اليوم لتخريب منهج .

في هذا الكتاب الجديد الهام يرسم ماركوز ، عبر تحجرات النظريات الثورية المعهودة ، المعالم العريضة لحساسية ثورية جديدة .

يصدر قريبا